

اللغة وشخصية الأمة

الدكتور علي خذري

معهد الآداب - جامعة باتنة

تباينت وجهات نظر الدارسين بشأن المقوم الأساسي لشخصية الأمة، وبلغ التباين مبلغه بين المدافعين عن عنصر اللغة باعتباره المعبر الحقيقي عن كيان الأمة، وبين المدافعين عن عنصر العقيدة باعتباره الهدي الإنساني الكبير للمجتمع البشري الأمثل. وبين المدافعين عن العناصر الأخرى كالتاريخ والعادات والأفكار المشتركة، فلذهبوا في استخلاصاتهم مذاهب شتى. ولا نريد في هذا الصدد الوقوف عند هذه الآثار المختلفة أو نقدها، بل إن غایتنا تتلخص في فهم العلاقة بين اللغة وشخصية الأمة من أوجه متفرقة. وتأسيساً على ذلك، فإن الدراسة ستنصب على الأوجه المتعددة للعلاقة بين اللغة وتمييز شخصية الأمة وفق التصور الآتي:

- 1 - تعريف اللغة (وما تنطوي عليه من أبعاد ضرورية لها صلة بشخصية الأمة).
 - 2 - تعريف الأمة (من الوجهة الإسلامية والقانونية وتحليل عناصرها وصلتها باللغة).
 - 3 - اللغة واتصالها بفكر الأمة ووعياها.
 - 4 - دور اللغة في تكوين شخصية الأمة وضمان وحدتها.
- وفي سبيل تحقيق هذا الغرض سنحاول أن نعتمد بعض التحليل والاستنتاج من

التعاريف ومن العناصر التي تتكون منها الأمة لنصل إلى العلاقة التي تربط شخصية الأمة باللغة.

1 - تعريف اللغة :

تمثل اللغة عاملا وعنصرا جوهريا في تكوين شخصية الأمة فغالبا ما تصبح الحدود اللغوية على بقعة جغرافية معينة، هي الحدود السياسية للأمة. وكثيرا ما تتعاطف شعوب تضمها لغة واحدة، على الرغم من أنهم لا ينتمون إلى دولة واحدة. ونظرا لهذه الأهمية التي تحظى بها اللغة بالنسبة لتكوين وتأسيس شخصية الأمة، أصبح من الضروري تعريف اللغة ثم تحليل أهميتها في التعبير عن المشاعر ودورها بالنسبة للوجود العربي ككيان له خصائص متميزة عن غيره. يقول ابن جني : « أما حد اللغة فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »⁽¹⁾. ويعرفها يسن خليل - من المحدثين - بأنها : « منظومة مؤلفة من أصوات « منطوقة أو مكتوبة » مترابطة وفقا لقواعد بنائية معينة في سبيل تحقيق الاتصال الفكري والعاطفي بين الناس »⁽²⁾. والتعريفان متقاربان فلا نكاد نجد بينهما فرقا، ولذلك لا بد من تحليلهما ليكون التحليل بمثابة الأساس الذي نعتمله في الربط بين اللغة وتكوين شخصية الأمة.

أ - ينطوي التعريف على البعد التركيبي الذي تقوم عليه الأصوات في الأبنية اللغوية.

ب - ويشتمل التعريف كذلك على بعد المعنى والدلالة، ونقصد به ما تشير إليه الألفاظ والعبارات والجمل والقضايا في دلالات، فالألفاظ تعبر عن أفكار ذهنية أو تصورات، كما تشير إلى أشياء في العالم المادي. وتعبر الجمل والعبارات والقضايا عن أفكار وأحكام، كما تشير إلى أشياء ووقائع في العالم الخارجي.

ج - ويحتوي التعريف على البعد الشعوري بوصف اللغة تحمل إحساسا وعاطفة مشتركة بين أفراد الأمة يدركها المرء من خلال مشاركته في استعمال اللغة.

وبتعبير آخر، فإن هذا البعد يمثل الناحية الوجدانية والنفسية التي تعبر عنها روح الأمة. وبالتالي، فهي معان ليست موضوعية، بل ذاتية يشعر بها المنتمي إلى الأمة التي تستعمل تلك اللغة؛ لأن تلك الروح قد نمت في داخل الفرد منذ الصغر من خلال التربية التي تلقاها في البيت والمدرسة والمجتمع. والمتأمل في هذه الأبعاد الثلاثة سيجد الارتباط العميق بين البعد الشعوري للأمة، وبين العناصر الأخرى في استعمال اللغة وفق قواعد بنائية خاصة. وإذا كانت اللغة أداة للتعبير عن وجود الأمة وتميزها عن غيرها، فكيف نفهم العلاقة بين الأبعاد الثلاثة وشخصية الأمة التي تقوم على بعدين تركيبين وحضاريين.

أولاً : البعد التركيبي:

إن التراكيب اللغوية المختلفة في كل لغة تعبر عن طريقة معينة في التفكير وأسلوب مشترك بين الأفراد الذين يتحدثون بها في ترتيب المفاهيم، وهذا يدل على أن أبنية الكلام تتصل بأبنية المخارج الصوتية للغة عند أمة ما من الأمم.⁽³⁾ ويمكن إدراك أهمية اللغة عند الكشف عن ماضي الأمة، وما يحلمه من آثار وأعمال فكرية وفنية وحضارية.

ثانياً - البعد الحضاري :

وأساسه التساؤل الذي نطرحه حول ماهية الأمة، ماهي الأمة، وما العناصر الأساسية التي تتكون منها وما العلاقة التي تربطها باللغة؟ وهذا ما سنفصل الحديث عنه في النقطة الثانية من هذا الموضوع.

2- تعريف الأمة :

اختلفت الآراء بالنسبة لمفهوم الأمة، فمنها الرأي الذي يستند إلى عنصر الدين، ومنها ما يقوم على أساس الجنس البشري ومجموعة الظروف الاجتماعية، كما هو الحال في الأمة الألمانية. في حين تذهب بعض الآراء إلى أن المقوم الحقيقي للأمة، أو الأساس اللغوي لها، هو لسانها، مثلما هو الشأن في الأمة الأمريكية المعاصرة. وللوصول إلى دراسة هذه الآراء سنقف عند بعض التعاريف الخاصة بالأمة.

أولا : مفهوم الأمة في القرآن:

تواجه مفهوم الأمة في القرآن صعوبات مختلفة عن تلك التي تواجهها دراسة المفهوم ذاته في التعاريف الوضعية. وأولى تلك الصعوبات خلوّ النص القرآني من أي تعريف للدلالة (الأمة) بكيفية صريحة. ولقد أدرك مفسرو القرآن هذه الصعوبة، وعالجوها بطريقة التأويل.

فلقد ورد ذكرها في القرآن بصيغة المفرد أكثر من خمسين مرة (كنتم خير أمة أخرجت للناس)⁽⁴⁾، (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)⁽⁵⁾، (إن هذه أمتكم أمة واحدة)⁽⁶⁾، (ولكل أمة رسول)⁽⁷⁾.

نستنتج من هذا كله أن تصوّر القرآن للأمة يقوم على جدلية بين الطريقة والجماعة تكون الوحدة فيها قائمة على الإيمان بالعقيدة وعلى ممارسة أحكامها ونظام قيمها⁽⁸⁾.

إذن فقيم الأمة وعناصرها في المفهوم القرآني قائمة على الجماعة التي تعتنق عقيدة واحدة، وأن هذا المعتقد لا يمكن أن يفهم بمعزل عن اللغة التي ترفده، فمثلا: لا يفهم القرآن فهما جيدا إلا بواسطة اللغة العربية، ومن هنا تصبح اللغة أمرا مهما في التعريف القرآني للأمة وضرورة حتمية للفهم.

ثانيا: الأمة في المفهوم الفلسفي:

يؤسس الفيلسوف الإسلامي الفارابي مفهوم الأمة على الخلق الطبيعي، والشيم الطبيعية، واللسان، يقول: «وآخرون رأوا الارتباط هو تشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة، وأن التباين يتباين هذه، وهذا هو لكل أمة»⁽⁹⁾.

من التعريف السابق نخلص إلى مكونات الأمة في نظر هذا الفيلسوف، فنجد

أنها تتكون من عناصر ثلاثة:

1 - الخلق الطبيعي أو الانحدار الجنسي.

2 - الشيم الطبيعية أو العادات .

3 - اللغة التي هي لسان الأمة.

ومن ثمة، فإن عنصر اللغة وارد، فلا مناص من التحلل منه، فاللغة والأمة أمران

متلازمان ومتعادلان، فاللغة جهاز الاجتماع في الانسان، وهي بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به الأمة، وتنقل به أفكار الأفراد.

ثالثا - الأمة في المفهوم القانوني:

والأمة في المفهوم القانوني هي «جماعة أو مجموعة من الناس تربط بينهم

علاقات تعينها عوامل لغوية وثقافية وحضارية وسياسية واجتماعية واقتصادية»⁽¹⁰⁾.

وبذلك يقوم ركن الأمة أساسا على توافر الظاهرة الاجتماعية القائمة على أساس

الوحدة اللغوية. فاللغة - بهذا المفهوم - تعدّ من الأحوال الشخصية للأمة. والتمسك بها

يعطي للأمة صلاحية صدور العمل الشرعي على وجه يعتد به حضاريا وثقافيا ويكسبها

أهلية الأداء. والتحلل منها يفقدها هذه الأهلية ويجعلها في ولاية الغير⁽¹¹⁾.

(أ) ماذا لو فقدت الأمة لغتها؟

إن فقدان أمة من الأمم للغتها معناه فقدان حياتها، وعندئذ تكون قد ذابت في غيرها، وفقدت تقاليدها الاجتماعية والدينية، فلا يبقى لها قوام يميزها عن سواها.

(ب) اللغة واتصالها بفكر الأمة ووعيها:

3- اللغة واتصالها بفكر الأمة ووعيها:

تعتبر اللغة الوعاء الفكري (للماضي والحاضر والمستقبل)، فحياتها انعكاس لأصحابها، وترتبط ارتباطا جدليا بالوسط الذي تستخدم فيه، فإذا ارتقى هذا المجتمع ارتقت لغته وإن تخلف انحدرت لغته. وهي في ذلك مخضع لمؤثرات اجتماعية كثيرة، كالدين، والفلسفة والسياسة وجميع المظاهر الحضارية الأخرى⁽¹²⁾.

فاللغة أداة تفكير الإنسان ووسيلة تعبيره، وفي الوقت ذاته هي صورة لفكره. ولذلك كلما كان التعبير واضحا ودقيقا كانت الفكرة في الذهن جلية دقيقة. إذ لا يتصور أبدا - أن نفكر دون لغة.

والا بقي التفكير في الداخل، إذ ليس هناك فصل بين الكلمات والأفكار، بل نجد اتصالا وثيقا بينهما، لأن الأمة تتكلم بالصورة التي تفكر بها. وليس ذلك فحسب، بل إن كل أمة تخزن في لغتها تجاربها بما فيها من عناصر الصواب والخطأ فتنتقلها إلى الأجيال الناشئة، فتصبح جزءا من التراث الذي تنقله اللغة عبر الأجيال⁽¹³⁾. وأكثر من ذلك، فإن اللغة ليست مجرد أداة للفكر، وإنما هي القالب الذي يتشكل فيه الفكر، ولا نظن أن هناك من ينكر أن الطفل الصغير يتعلم التفكير بالكلمات التي تقدمها له لغة المجتمع الذي ينشأ فيه. وإذا كان الأمر كذلك، فإن عالمه الفكري سيكون وفق هذا المجتمع. وعلى أي حال فإننا لا نستطيع أن نفكر دون كلمات، ولا يمكن أن نتكلم كلاما منطقيا من دون تفكير. ولا نتصور أن هناك انفصالا بين اللغة والفكر.

4- دور اللغة في تكوين شخصية الأمة وضمان وحدتها:

إن أهمية اللغة في تكوين شخصية الأمة الفكرية والاجتماعية وتوحيدها من الأمور الهامة التي لفتت الانتباه. وذلك لأن عوامل الربط الوثيق بين اللغة والأمة يؤكدُه العمق التاريخي الممتد في نفوس أهلها، حتى صاروا يعبرون عنها في كل مظهر من مظاهر حياتهم.

فالحديث عن اللغة لا ينفصل عن الفكر؛ لأن اللغة تمثل السبيل لاستكشاف دواخل الأمة، فمن خلال ألفاظها تعبر عن كوامن الإحساس بالمواطنة والشعور بالصلة والتوافق بالمشاعر، وهي من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة. وهي بالتالي تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متماسكا ومتراصا تحكمه قواعدها وأصولها، وتوحد تفكيرهم أساليبها وطرائقها. ويقول الراجعي:

« إن اللغة صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه » (14).

فاللغة نشأت مع الأمة، ومنذ نشأتها لازمتها ملازمة الروح للجسد في جميع فترات تطورها، وبها توحدت قديما، وتتوحد اليوم، وتؤلف في هذا العالم رقعة من الأرض، تتحدث بلسان واحد، وتصوغ أفكارها وقوانينها في قالب تلك اللغة.

وخلاصة الحديث فإنه لن تقوم لأمة ما من الأمم قائمة من غير لغة تجمع أواصرها، وتوحد مشاعرها، وتحقق مصالحها. وعليه، فالحفاظ على اللغة حفاظ على الأمة ووحدتها، وهي في الوقت ذاته دفاع عن الإنسانية وتقديمها.

الهوامش :

- (1) ابن جني، الخصائص 33/1 (تحقيق محمد علي النجار). دار الهدى للطباعة والنشر، ط2 ، بيروت (د. ت) .
- (2) يسن خليل، منطق اللغة، مطبعة العاني، بغداد 1962 ص 343.
- (3) يسن خليل، اللغة والوجود القومي، (بحوث ودراسات مركز دراسات الوحدة العربية) ص348.
- (4) سورة آل عمران، آية 110 ،
- (5) سورة هود، آية 118 .
- (6) سورة الأنبياء ، آية 92.
- (7) سورة يونس، آية 47 .
- (8) ناصف نصار، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دار الطليعة ، بيروت ، ص 22.
- (9) د. ناصف نصار، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، ص 22 ،
- (10) د. عبد المنعم فرج، مصادر الالتزام، دراسة في القانون اللبناني والمصري، دار النهضة ، بيروت ص 132.
- (11) د. إحسان عباس، مجلة المستقبل العربي، مارس 1981م.
- (12) د. وهبة رومية، مجلة اليمن الجديد، مارس، صنعاء 1985م.
- (13) د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة بيروت ص77.
- (14) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار المعارف، القاهرة، ج 2 ، ص 36.